تحقيق رسَالة الزُّرْزُور

لأبي الحسَن بن سَراج

ورد أبي القاسم بن الجدّ عليها

د. عبدالرحمن عبدالرؤوف الخانجي

ماهي الرسائل الزرزورية ؟

هي لون من الترسّل الأدبي الذي يعني بالتحدّث عن ضرب من الأدباء أشبه بالمكدّين. وقد استعارت هذه الرسائل في وصفها لهؤلاء الأدباء اسم «الزُّرْزُور» أو الزُّرَيْزِر ـ على التصغير ـ لما يمتاز به هذا الطائر من حركة ونشاط جين مع حجم دقيق وضئيل.

ونرجّح أنّ هذه الرسائل قد ظهرت بالأندلس في أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس للهجرة. ويقوّى هذا الترجيح أنّ ابن سراج، وهو أول من استثار هذا اللون من الرسائل، توفي سنة ٥٠٨هـ وعلى هذا الترجيح يكون ميلادها في عصر المرابطين (٤٨٤ ـ ٥٣٩هـ)، وهو عصر لم يكترث حكامه كثيراً بالأدب والأدباء مقارنة بما كان يسبغه عليهم أمراء الطوائف من تكريم. ولعلّ ضيعة الأديب في هذا العصر تفسر لِمَ كانت «الزُّرْزُوريات» أدخل في باب الشفاعات والوساطات حين يحمل الرسالة أديب منتجعاً بها من

مكان إلى آخر وإن كان كتابها ــ جميعاً ــ قد أدركوا عصري الطوائف والمرابطين معاً.

ولايُفْهَمَنَّ من هذا الترجيح أنّ عصر الطوائف قد خلا تماماً من الكدية أو رسائل الشفاعات، فهذا أمر لا سبيل إلى إقراره. فالكدية والشفاعة والوساطة جميعها موجودة ومعروفة في هذا العصر، إذ لم يحتضن كلّ أمراء الطوائف الأدب وأهله احتضان المعتمد بن عباد ولكنهم ــ وعلى تفاوت في الاهتمام بأمر الشعراء والأدباء ــ أفردوا عناية بالأدب وأهله كانت هي الطابع العام الذي وسم عصر الطوائف.

أما الدولة المرابطية فقد قامت على قاعدة من الجهاد الديني العريض، وانطبعت أول أمرها بهذا الطابع، فلم يكن (يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلاّ من علم الفروع، فروع مذهب مالك)[1] ولعل رسالة الشقندي قد رسمت ــ على تحاملها بالمرابطين ــ صورة طيبة لعناية أمراء الطوائف ــ على تفاوت بينهم ــ بالأدب والأدباء. وهي ــ بعد ــ لم تخل من سخرية بالمرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين حين تعرض لصلته بالشعر والشعراء، بل وفهمه وتذوقه للغة العربية[2]. وقد جلّى ابن بسام هذه الحقيقة في قوله (ولما صمت ذكر ملوك الطوائف بالأندلس، طوى الشعر على غِره وبرى من حلوه ومره، إلا نفثة مصدور والتفاتة مذعور)[3]. وإن كان المستشرق غرسيه غومس يرى رؤية مخالفة، فالشعر الأندلسي «لم يمت في عصر المرابطين وكل ماحدث أنه كيّف نفسه بما يلائم الظروف الجديدة التي أحاطت به»[4] ومع ذلك يبقى شيء من الواقع في أنّ ابن تاشفين لم يكن يحسن العربية أو يحسّ بها ويتذوقها كأمراء الطوائف، وأنّ رهطه من أهل المغرب ــ الأفارقة ــ كانوا أقلّ حظاً في تقدير الشعر والاحتفاء بالأدب والأباء من أهل الأندلس. ولا ننكر أنّ الصورة القاتمة التي رسمها الشقندي للمرابطين هي في أصلها ذات جذور تضرب في وتر النقمة العامة التي يحسها الأندلسيون تجاه المرابطين ولكنها ــ بعد ــ تصور جزءاً أصيلاً من الحقيقة.

وعلى كل، فلا سبيل إلى إنكار أنّ شيئاً من الاهتزاز في العصر المرابطي قد مسّ كل المقاييس والقيم التي كان ينظر بها حماة الشعر والأدب للشعراء والأدباء. هذه الهزة ترجع إلى عواملَ كُثْر، من أهمها الخلل السياسي في عصر الطوائف نفسه. ثم بلغ الأمر غايته حين جعل يوسف بن تاشفين الجهاد الديني الهدف الأول للدولة، فاتسمت بميسم الاهتمام والعناية بالجهاد

الديني، وصوّح فيها الزخم الأدبي والجلال الشعري. وإذا أضفنا إلى العاملين السابقين عاملاً آخر يرتبط بالتكوين النفسي والثقافي لحكام المرابطين أنفسهم ــ وهو ضعف الرابطة بين الممدوح الذي لا يحسن تذوق الشعر البليغ وبين الشعر نفسه ناهيك عن الشاعر ــ كان الاستقراء غير بعيد من قول ابن بسام: إنّ الشعر لم يبق منه (إلا نفثة مصدور والتفاتة مذعور). وقد عبر الشاعر الأعمى التطيلي عن هذا المعنى في عبارة ساخرة ــ تعكس إحساسه بالإحباط والغبن ــ حين قال: إنَّ (قال مالك) قد طردت (قام زيد):

أيا رحمتا للأديب أقوت ربوعه	على أنّها للمكرمات مناسك
وللشعراء اليوم ثلّت عروشهم	فلا الفخر مختال ولا العز تامك
فيا دولة الضيم أجملي أو تجاملي	فقد أصبحت تلك العرى والعرائك
ويا «قام زيدٌ» أعرضي أو تعارضي	فقد حال من دون المنى «قال مالك»[٥]

أي أنّ الفقيه قد قام مقام الأديب، وأنّ الفقه والشرع قد أبعدا الأدب واللّغة عن الميدان الفكري.

وبذلك نفهم لِمَ ظهر الزّجالُ ابن قزمانَ في هذا العصر، وكيف عبّر عن الكدية في أزجاله وصوّرها بروح وأسلوب عجزت عنه حتى المقامات الأندلسية فضلاً عن الرسائل الزرزورية[٦].

ونخلص إلى أنّ الرسائل الزرزوية هي مساجلات بين الأدباء تبدأ بأن يرسل أديب رسالة في شأن زرزور إلى أديب آخر يوصيه به خيراً، وتقوم الرسالة مقام شفاعةٍ وتوصية له، فيرد الأديب الآخر معدداً فضائل هذا الزُّرْزُور ــ كما فعل الأديب الأول ــ ومشيداً بفضلهِ، ولكنه أبداً لا يبقيه عنده. فقد يرده إلى صاحبه الأول مزوداً برسالة، أو يوجّه به إلى أديب آخر وفي جعبته رسالته الزرزورية. وهكذا تتسع دائرة المساجلة بدخول أدباء جدد حلبة المنازلة.

هذه الرسائل لم نعرف لها نظيراً في المشرق، سوى أنها تحاول أن تجعل الزُّرْزُور يقترب من أبطال المقامات فنراه في تجوال دائم، يلبس لكلّ حالة لبوسها. وهو يجيد في أسلوبه عن بديهة وارتجال، مع لسان ذرب ومقدرة على الخلق والإبداع. وكالبطل المقامي ــ هو ــ دوما ناقد

وأديب وشاعر وواعظ وفقيه ومعلّم ومرشد. وقد اختلفت الزرزوريات عن المقامات في غياب الراوي عنها كما أنّ بطلها لم يكن ماكراً وخدعة ومستهتراً بملذاته كالبطل المقامي، وإن لم يخل من نَفَس سخرية واحتيال. ولعلّ الزرزوريات والمقامات قد أثرت في الأدب الاسباني في القرن السادس عشر الميلادي في ميلاد قصص الشطار والتي اقترب بطلها من أبطال المقامات والزرزوريات في تكديه واستهتاره بالملذات[٧].

من هم كتاب الزرزوريات؟

قادني الاستقراء الدقيق والنظر الطويل في المخطوطات إلى أنّ خمسة كتاب أندلسيين هم الذين عالجوا هذا اللون الأدبي من الرسائل في الأندلس. ومن عجب أنّهم جميعاً قد أدركوا عصري الطوائف والمرابطين معاً، بما يقوى حدسي أنّ ميلاد هذا اللون من الرسائل كان في العهد المرابطي، انعكاساً لضياع الأديب وخفوت صوته.

وأول كاتب استثار هذا اللون من الرسائل في الأدب الأندلسي هو:

أ ـ ابن سراج، سراج بن عبد الملك بن سراج أبو الحسن بن أبي مروان. وقد عاش بقرطبة أيام الدولة الجَهْوَرِيَّة في عصر ملوك الطوائف. ولما سقطت قرطبة في يد بني عباد وزالت دولة بني جهور صار من حاشية المعتمد بن عباد بقرطبة. وهو شاعر وناثر وأديب. ووالده النحوي المشهور أبو مروان عبد الملك بن سراج، وقد كان إماماً لأهل قرطبة في زمانه. عاش ابن سراج بعد زوال ملوك الطوائف في كنف المرابطين حوالي ربع قرن حتى توفي سنة ٥٠٨هـ[٨].

وقد كتب ابن سراج رسالة زرزورية واحدة ورد نصّها في مخطوطين هما:

١) مجموعة رقم ٤٨٨ ـ مخطوط الأسكوريال، ورقة ١٠٩ وقد صدّرت الرسالة بالعنوان الآتي: (رسالة لأبي الحسن بن سراج إلى أبي القاسم بن الجد معتنياً بالزريزير).
٢) مخطوط الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني ج ٢، مخطوط بغداد، نسخة مصورة بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، ورقة ٢٣١، وقد صدّرت الرسالة بالعنوان الآتي: (وكان الوزير أبو الحسن بن سراج قد خاطب بعض

أهل العصر برقعة يشفع لرجل يعرف بالزريزير يقول في فصل منها).

أما الرسالة الزرزورية الثانية فقد كانت رداً على رسالة ابن سراج هذه وقد كتب بها :

ب ـ ابن الجَدِّ: أبو القاسم محمد بن عبدالله الفهري المعروف بابْنِ الجَد. وقد أدرك ابنُ الجَدِّ مايربو على الثلاثين سنة من حكم المرابطين وتوفي سنة ٥١٥هـ[٩] وقد كتب ابن الجد ثلاث رسائل زرزورية، وهي أكثر عدد من الرسائل كتب به كاتب واحد في موضوع الزرزوريات. وقد وردت نصوصها في المخطوطين التاليين :

الرسالة الأولى :

١) مجموعة رقم ٤٨٨/ مخطوط الأسكوريال/ ورقة ١٠٩ ـ ١١٠، وقد صدرت الرسالة بالعنوان الآتي: (مجاوبة الكاتب أبي القاسم ابن الجد).

٢) الذخيرة/ جـ٢/ مخطوط بغداد/ ورقة ٢٣١ ـ ٢٣٤ وقد صدرت الرسالة بالعنوان الآتي: (وانتهت هذه الرقعة إلى الوزير أبي القاسم بن الجد فعارضها برسالة قال فيها).

الرسالة الثانية :

ورد نصها في مخطوط واحد هو :

الذخيرة/ جـ٢/ مخطوط بغداد/ ورقة ٢٣٤ ـ ٢٣٦، وقد صدرت الرسالة بالعنوان الآتي: (وله من أخرى).

الرسالة الثالثة :

ورد نصها في مخطوط واحد هو :

الذخيرة/ جـ٢/ مخطوط بغداد/ ورقة ٢٣٦ ـ ٢٣٧ وقد صدرت الرسالة بالعنوان الآتي: (وله من رقعة شفاعة للزريزير المذكور)

وثالث الكتاب الذين كتبوا في فن الزريزيريات هو :

جـ ـ أبو بكر محمد بن عبدالعزيز بن سعيد البطليوسي. وقد كان صاحب بلنسية أيام ملوك الطوائف وعرف بالشعر والنثر والأدب[10]. كتب البطليوسي رسالة زرزورية واحدة، ورد نصها في مخطوط الذخيرة الجزء الثاني/ مخطوط بغداد/ ورقة ٤٧١ ـ ٤٧٢. وقد صدرت رسالته بالعنوان الآتي: (وعرضت عليه تلك الرسائل التي تقدمت في خبر الزرزور فكتب في ذلك رقعة منها). وتبدأ الرسالة بقوله: (أَمّلك أبا الحسن الأحرار وأُمّلك الكبار. . .). والإشارة هنا لأبي الحسن بن سراج وكأنّ البطليوسي يرجع برسالته إلى منشئها الأول ابن سراج.

د ـ ورابع كاتب كتب في الزرزوريات هو أبو عامر بن أرقم الذي عاش في عصر المرابطين، ولم تسلم حياته ـ مع شاعريته ـ من شظف وحرمان دفع به إلى شيء من الكدية، فكتب مقامه مدح بها الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين[11]. أما رسالته الزرزورية فقد أورد نصها الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقيان، ص١٥٢. وقد صدرت بقوله (وكتب إلى أحد إخوانه شافعاً لرجل يعرف بالزُّرَيْزِير).

هـ ـ وآخر كاتب انتهى إليه أمر هذه الرسائل هو: أبو عبدالله بن أبي الخصال الملقب بذي الوزارتين وبكاتب أمير المؤمنين علي بن تاشفين، وهو عالم بالأخبار والحديث والسير والأشعار، وأديب شاعر وناثر وقد شهد الحكم المرابطي حتى لفظا أنفاسها الأخيرة معا. فزالت دولة المرابطين سنة ٥٣٩هـ وتوفي ابن أبي الخصال سنة ٥٤٠هـ[12]. تحول ابن أبي الخصال بالرسالة الزرزورية إلى ضرب أشبه بالخطبة الدينية، فأطال الأدعية والتحميدات في أولها، كما زاوج فيها بين الشعر والنثر.

كتب ابن أبي الخصال رسالتين زرزوريتين وردتا في المخطوط رقم ٥١٩/ الأسكوريال/ ترسل الفقيه الكاتب ابن أبي الخصال. وقد صدرت الرسالة الأولى بالعنوان الآتي: (رسالة لذي الوزارتين الأجل أبي عبدالله بن أبي الخصال في الزرزور) ورقة ٢ ـ ٤.

كما صدرت الرسالة الثانية بالعنوان الآتي: (وله أيضاً في الزرزور) ورقة ٦٨ ـ ٧١.

وبموت ابن أبي الخصال مات هذا اللون الأدبي من الرسائل، فلم نعرف في دولة الموحدين أو بني الأحمر كاتباً أدلى بدلوه في هذا اللون الأدبي، وبالمثل لم نعثر على رسالة زرزورية أخرى

سوى ماذكرناه في هذه المقدمة.

نسختا المخطوطين والتحقيق :

اعتمد تحقيق هاتين الرسالتين على ورودهما في مخطوطين مختلفين. وفي ـ ايجاز ـ نورد أهم الملاحظات الخاصة بكل مخطوط مع العناية بما يخص الرسالتين موضع التحقيق.

المخطوط الأول والذي جعلناه أصلاً هو :

المخطوط رقم ٤٨٨/ الأسكوريال :

يضم هذا المخطوط عدداً من الرسائل والمقامات في أغراض شتى ولكتاب مختلفين من العصر المرابطي. وهو مفهرس تحت الرقم (مجموعة ٤٨٨) وموجود بمكتبة دير الأسكوريال بمدريد (اسبانيا). وأهم ماورد فيه من رسائل ومقامات يمكن حصرها في الآتي :

١) ترسل الفقيه أبي محمد البطليوسي ومراجعاته: ورقة ٢٥ ـ ٢٨.
٢) «رسالة كتب بها الأمير أبو يعقوب بن يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية يصف فيه فتح بلاد العرب وجوازه للأندلس للجهاد «ورقة ٥٨.
٣) جملة رسائل إلى قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام كتب بها ابن أبي الخصال والبطليوسي ورقة ٦٢ ـ ٦٥.
٤) مقامة الفتح بن خاقان في البطليوسي ورقة ٨٠ ـ ٨٣.
٥) رسالة الانتصار في الرد على صاحب المقامة القرطبية ورقة ١٠٤.
٦) مقامة في ابن الربّاحي ورقة ١١٤.
٧) مقامة لأبي الحسن المرسي في الرد على البطليوسي ورقة ١١٦.
٨) مجموعة رسائل متعددة في التهاني والتعازي لكتاب مختلفين.

والمخطوط مكتوب بخط أندلسي يحفل بقدر من الرشاقة والجمال والكلمات منقوطة ومشكلة سوى عدد قليلٍ منها. والمخطوط بوجه عام سليم وخال من التلف والاضطراب.

يضم المخطوط مائة وعشرين صفحة، كتبت بخطين أندلسيين مختلفين وقد أدى ذلك إلى

اختلاف في عدد الأسطر بصفحات المخطوط. فمن بداية المخطوط (ورقة ١) حتى ورقة (١٠٠) نجد ثلاثين سطراً بكل ورقة، وبكل سطر حوالي عشر كلمات. ثم يختلف الخط بعد الورقة رقم (١٠٠) حتى آخر المخطوط (منتصف الورقة رقم ١٢٤) إلى خط مغاير بما يجعل الورقة تضم أربعين سطراً وبكل سطر حوالي اثنى عشرة كلمة. والاختلاف بين الخطين بيّن وظاهر إلى حد ترك آثاره على عدد الأسطر وعدد الكلمات بكل سطر.

تقع الرسالتان المحققتان في الثلث الأخير من المخطوط، الأوراق (١٠٩ ــ ١١٠) والرسالة الأولى هي رسالة ابن سراج وتبدأ من منتصف الورقة (١٠٩) وتقع في اثنى عشر سطراً، وقد صدرت بالعنوان: «رسالة لأبي الحسن بن سراج إلى أبي القاسم بن الجد معتنياً بالزريزير». ثم تعقبها مباشرة رسالة ابن الجد وقد صدرت بالعنوان «مجاوبة الكاتب أبي القاسم بن الجد» وتبدأ الرسالة من الثلث الأخير في الورقة (١٠٩) وتنتهي في منتصف الورقة (١١٠)، وتقع في حوالي ثلاثين سطراً.

وقد جعلت هذا المخطوط أصلاً، إذ ورد في الصفحة الأخيرة منه (ورقة رقم ١٢٤) وبخط مغربي معتاد أقل عناية وجمالاً عن الخطين الأندلسيين الواردين في صلب المخطوط مع خلو من الشكل والترقيم، مايرجع تاريخ نسخه إلى عام ٦٤٣هـ . كما تثبت هذه الصفحة اسم الناسخ مع الختم والتاريخ. تقول: (قرأت أبعاض جميع ماتقيد فوق هذا، ومنها ما أكملته وسمعت أبعاض ذلك ومنها ما كمل بسماعه على الشيخ الفقيه الأستاذ لي علي بن عمر بن محمد بن عمر بن عبدالله الأزدي الشهير بابن الشلوبين رضي الله عنه وأجاز لي ما فاتني منها مما في روايته، وناولني السفر بكليته وأباح لي رواية مافي روايته منه، والاسناد إليه فيه، والله ينفع بذلك. قاله وكتبه عبيدالله الفقير إليه محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن يحي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبدالله بن عبدالعزيز بن سيد الناس اليعمري، وفقه الله حامداً ربه، ومستغفراً ذنبه، ومصلياً على نبيه محمد الكريم، ومسلماً على آله، وذلك كله في عقب شهر ذي قعدة سنة ثلاث وأربعين وست مائة).

ويعقب ذلك في السطر الذي يليه اسم الناسخ في خط أقرب إلى التوقيع وبقلم وحبر مختلفين، ثم في نفس السطر التاريخ والختم. وقد رمزت لهذا المخطوط في التحقيق بالحرف (م).

أما المخطوط الثاني الذي وردت فيه الرسالتان فهو مخطوط الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني ـ الجزء الثاني ـ مخطوط بغداد. والنسخة التي اعتمدتها مصورة عن هذا المخطوط ومحفوظة بمكتبة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد. وهي نسخة حديثة نسبياً ومكتوبة بخط نسخي عادي، ومما يؤكد حداثتها أنّها تعني بتصويب النص بالإشارة إلى نسخ أخرى من كتاب الذخيرة. وقد رمزت لها في التحقيق بالحرف (ذ).

تبدأ رسالة ابن سراج من أول الورقة (٢٣١) وقد صدرت بالعنوان: (وكان الوزير أبو الحسن بن سراج قد خاطب بعض أهل العصر برقعة يشفع لرجل يُعرف بالزريزير يقول في فصل منها).

وتقع الرسالة في ثلاثة عشر سطراً وبكل سطر حوالي ثماني كلمات.

أما رسالة ابن الجد التي صدرت بالعنوان: (وانتهت هذه الرقعة إلى الوزير أبي القاسم بن الجد فعارضها برسالة قال فيها: «فتبدأ من منتصف الورقة (٢٣١) مباشرة عقب رسالة ابن سراج وتنتهي بنهاية الورقة (٢٣٤) مستغرقة ستة وخمسين سطراً.

ويتضح من التحقيق أنّ الاختلاف بين المخطوطين ليس كبيراً، فلا تعارض أو حذف أو اضطراب يذكر بين النصين. ومع أني اعتمدت المخطوط ٤٨٨ أصلاً، إلا أنّ مخطوط الذخيرة حفل بإضافات طيبة أثبتها في مكانها من التحقيق.



التعليقــات :

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ١١١ ـ المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان، مصر ١٩٤٩م.

(٢) من طريف سخرية الشقندي بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين ما أورده في موقفين من الرسالة: أولهما أنّ المعتمد بن عباد سأله وقد أنشده الشعراء مدحاً: «أيعلم أمير المسلمين ماقالوه؟ قال: (يوسف بن تاشفين) لا أعلم، ولكنهم يطلبون الخبز». والموقف الثاني: يحكى أنّ المعتمد بن عباد بعد انصرافه عن المغرب إلى الأندلس كتب ليوسف رسالة يتأسى فيها على فراقه، واستشهد بقول ابن زيدون:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولاجفت مآقينا
حالت لفقدكمُ أيامُنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

● صورة من المخطوطة ●

فلما قرئ، عليه هذان البيتان قال للقارىء: يطلب منا جواري سوداً وبيضاً؟ قال: لا يامولانا، ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً لأن ليالي السرور بيض، فعاد نهاره ببعده ليلاً لأن ليالي الحزن ليال سود. فقال: والله جيد، أكتب له في جوابه إنّ دموعنا تجري عليه، ورؤسنا توجعنا من بُعْدِهِ».

واجع الرسالة في كتاب: نفح الطيب: ١٨٠ وما بعدها ــ المقّري تحقيق محمد محي الدين ــ دون تاريخ ــ

(٣) مخطوط الذخيرة/ جـ٢/ مخطوط بغداد/ الورقة ٢٦٤ .

(٤) الشعر الأندلسي: ٢٧، غارسية غومس، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٢م .

(٥) ديوان الأعمى التطيلي، ورقة ٤٣: النص منقول من كتاب الدكتور إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين ٩٠، دار الثقافة، ١٩٦٢م.

(٦) راجع الفصلين القيمين للدكتور إحسان عباس الواردين في كتابه في الفقرة (٥) أعلاه، وهما:
أ / الدولة وتشجيع الحياة الأدبية ٧١ ــ ٨٠.
ب / الحالة الإجتماعية للشاعر: ٨١ ـ ٩٢.

(٧) هذا باب طويل في الدراسات المقارنة. وقد اختلف فيه الباحثون سلباً وإيجاباً. بعضهم يرى أن المقامات العربية قد أثرت على قصص الشطّار، وآخرون ينكرون مثل هذا التأثير. ومع ذلك فالقدر المتفق عليه من الحقيقة أنه شبيه بأبطال المقامات والزرزوريات ماعرفه الأدب الاسباني حوالي نهاية الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي في قصص الشطار Picaresca سواء عن طريق التأثير والتأثر أو لمجرد تشابه لا يسنده استقراء علمي. ذلك أن بطل هذه القصص الاسبانية يسمى El Picaro وهو كما يعرّفه قاموس الأكاديمية الاسبانية: (نموذج شخصية خالعة العذاو، شيطانية هزلية، تحيا حياة غير هنية، كما يبدو في عيون المؤلفات الأدبية الاسبانية)، ومن خصائص هذا البطل كثرة الترحال، وثراء القول اللّغوي، والانتهاء إلى طائفة المتسولين، مع سخرية برجال الدين، وإيثار للكسل والبطالة والاحتيال، في براعة ومراوغة وبديهة حاضرة وذكاء لماح. وهو ــ بعد ــ مثار عطف ومبعث شفقة واستظراف من الآخرين... وكل هذه الخصائص ليست بعيدة عن خصائص البطل المقامي أو الزرزوري.

راجع أ / النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة ٤٩ ــ ٥٠ محمد غنيمي هلال، القاهرة ١٩٦٤م والدكتور هلال يرى أن المقامات كان لها تأثير مباشر في نشأة قصص الشطار.

ب / Magamat Literature and the picaresque
Novel: Jareer Abu-Haidar,
Journal of Arabic Lit., vol V 1970, PP.
1 - 10.

وأبو حيدر لا يرى أنّ المقامات قد أثرت في قصص الشطار وأنّ الأمر ظل قاصراً على التشابه الذي لا يرقى إلى مرتبة التأثير والتأثر في الدراسات المقارنة.

(٨) للوقوف على ترجمته راجع:
١/ قلائد العقيان في محاسن الأعيان: ٢٣١ ــ الفتح بن خاقان، تقديم محمد العنابي، تونس، المكتبة العتيقة ١٩٦٦م.
٢/ المغرب في حلى المغرب: ١١٦/١ ــ ابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الثانية، مصر، دار المعارف، ١٩٦٤م.
٣/ الصلة: ٢٢٦ ــ ابن بشكوال، القاهرة، مطبعة السعادة ١٩٥٥م.

٤/ بغية الوعاة: ١/٥٧٦ ـ السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، القاهرة، عيسى البابي الحلبي ١٩٦٤م.

(٩) للوقوف على ترجمته راجع:
١/ قلائد العقيان: ١٢٣.
٢/ المغرب في حلى المغرب: ١/٣٤١.
٣/ خريدة القصر وجريدة العصر: ٢/٣٥٧ ـ العماد الأصفهاني، الجزء الثاني، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبدالعظيم، القاهرة، دار النهضة.

(١٠) للوقوف على ترجمته راجع:
١/ مخطوط الذخيرة/ جـ٣/ مخطوط بغداد/ ورقة ٤٦٨.
٢/ قلائد العقيان: ١٨٦.
٣/ المغرب في حلى المغرب: ٢/٣٤.

(١١) للوقوف على ترجمته راجع:
١/ قلائد العقيان: ١٥٠.
٢/ جذوة المقتبس: ٣٦٧ ـ الحميدي، تحقيق محمد بن تاويت الطبجي، الطبعة الأولى، مصر ـ مطبعة السعادة ١٩٥٢م.

(١٢) للوقوف على ترجمته راجع:
١/ قلائد العقيان: ١٩٩.
٢/ المغرب في حلى المغرب: ٢/٦٦.
٣/ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: ١٢١ ـ الضبي ـ القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م.
٤/ الصلة: ٥٣.

● ● ●

● نص الرسالتين ●

الرسالة الأولى:

رسالة لأبي الحسن بن سراج إلى أبي القاسم بن الجد معتنياً بالزُّرَيْزِير[١].

ياسيدي[٢] الأعلى، وعِلْقي الأغلى، ومذخوري الأزكى، وظهيري الأقوى، ومن أبقاه الله منير الظلمات[٣]، مشكوراً[٤]، بكل الألسنة واللغات، كتبت[٥] أدام الله عزك، والود صقيل الوذائل[٥]، مطلول الخمائل، جميل البكر والأصائل، والله يزيد أزهاره وضوحاً، وأطياره صدوحاً، وضياءه[٦] تيمناً وسنوحاً[٧]، ويصل به، وصل الله علوك، وكبت عدوك، شخص يعرف بالزريزير، أقام لدينا أيام التحسير، وزمان التبلُّغ بالشكير، فلما كملت ريشه[٨]، ونبا[٩] بأفراخه عوشه[١٠]، أزمع عنا قطوعا، وعلى ذلك[١١] الأفق اللدن تدلياً ووقوعاً،

رجاء أن يلقي في تلك البساتين مصفراً[١٢] وعلى تلك الغصون حباً وثمراً، وأنت بجميل تأتيك، وكريم[١٦] معاليك، تضع له هناك[١٧] وكونا[١٨]، وتستمع من نعم شكره على ذلك أغاريد ولحونا، دون أن يلتقط في فنائك حبّه أو يشترط من مائك عبّه:

وإذا أمـرؤ أهـدى إليـك صنيعـة   مـن جـاهـه فكـأنّها مـن مـالـه

فقلت[١٩](   )[٢٠].

وإن رأيت، أراك الله آمالك دانية، وأعمالك مرضية ذاكية، مراجعتي بللت ريقاً، ووصلت في المحامد مذهباً وطريقاً، لازالت آثار مجدك حساناً، وحبال ودك متاناً، وأغصان عهدك طيبة المكاسر لِدَاناً، بمنه.



حواشي الرسالة الأولى

(١) ذ: وكان الوزير أبو الحسن قد خاطب بعض أهل العصر برقعة يشفع لرجل يعرف بالزريزير يقول في فصل منها.

(٢) م. بسيدي

(٣) م: كلمة غير واضحة، نرجّح أنّها الظلمات بما يستقيم معه السياق.

(٤) ذ: تبدأ الرسالة من هنا: كتبت أحرفي هذه والود صقيل..

(٥) الوَذِيلةُ: والوَذِلة، والوَذْلة من النساء النشيطة الرشيقة الوذلة: الخفيفة من الناس والإبل وغيرها. الوذيلة: القطعة من الفضة والجمع وذيل، ووذائل، قال الطرماح:

بـخـدرد كـالـوذائـل لم   يُخْـتَزن عـنـهـا وَرِيُّ الـسـهـام

والوذائل جمع وذيلة، وهي المرآة، والوذالة: ما يقطع الجزار من اللحم بغير قسم.

أنظر: مادة وذل: لسان العرب.

(٦) ذ: تيامنا وسروحاً.

(٧) ذ: بمنه: زيادة.

(٨) ذ: من الطيور: زيادة.

(٩) التحسير: انحسرت الطير خرجت من الريش العتيق إلى الحديث: مادة حسر: لسان العرب.

(١٠) الشكير: ماينبت في أصل الشجرة من الورق، وليس بالكبار والشكير من الفرخ، الزغب، والشكير من الشعر والريش والعفا والنبت:

مانبت من صغاره بين كباره:

مادة شكر: لسان العرب.

(١١) ذ: وافى
(١٢) ذ: وبت
(١٣) ذ: عشوشة
(١٤) ذ: هذا
(١٥) ذ: مُغْمَرا
(١٦) ذ: مكارم
(١٧) ذ: هنالك
(١٨) الوَكْن: عش الطائر
(١٩) بياض بالنسخة (م) مقدار ثلاث كلمات.
(٢٠) الجزء من الرسالة عقب بيت الشعر وحتى نهايتها ناقص من النسخة (ذ).



الرسالة الثانية:

مجاوبة الكاتب أبي القاسم بن الجد[١].

حَسُنَت لك ياسيدي أبا الحسن مراتب[٢] الأيام، وتشوّفت نحوك غرائب الكلام، واهتزّت لمكاتبتك أعطاف الأقلام، وجادت على محلك أنطاف[٣] الغمام، وأشادت[٤] بنيلك[٥] وفضلك أصناف الأنام، فإن كان روض العهد ــ أعزّك الله ــ لم يصبه من تعهدنا طل ولا وابل، ولا سجعت على أَيْكِهِ ورق وبلابل، فإنّ أزهاره في[٧] شِرب الصفاء ثابتة[٨] وأشجاره في تِرب الوفاء راسخة نابتة[٩] وقد آن الآن لعقم شجره أن تُطْلِعَ من الثمر ألواناً، ولعجم طيره أن تُسْمِع من النغم ألحاناً، بما سقط لدى، ووقع عليّ، من طائر شهي الصفير، مبني الاسم على التصغير[١٠]، فإنّه رجّع بذكرك[١١] حيناً، وابتدع في نوبة شكرك تلحيناً، وحرّك من شوقي نحوك[١٢] سكونا، ودمث[١٣] في قلبي لودك وكونا، ثم أسمَعَني أثناء ترنُّمه كلاماً[١٤] لو تغنت به الورقاء لأذنت له[١٥] العنقاء، أو ناح بمثله الحمام لبكى لشجوه[١٦] الغمام، أو سمعه قيس بن عاصم في ناديه وبين أعاديه لحلّ الزّمع[١٧] حُباه، واسترد الطرب صباه:

كــلام لــو أنّ الــبــقــل يَـزْهَـى بمثـله
زهـى الـبَـقْـل واخضرّ الـعـضـاة[١٩] المُـصَـيْـف

فتلقيت فضل صاحبه بالتسليم، واعترفت بسبقه[٢٠] اعتراف الخبير العليم، وبعد فإنّي أعوذ[٢١] من هذا الحيوان الغريد، والشيطان المريد، فأقول لئن سمي بالزريزير، لقد صُغِّر للتكبير، كما قيل حريقيص، وسقّطه[٢٣] يحرق الحرج[٢٤]، ودُوَيْهية[٢٥] وهي تنتهب[٢٦] الأرواح والمُهَج، ومعلوم أنّ هذا الطائر الصافر يفوق جميع الطيور في فهم التلقين وحسن اليقين، فإذا علم الكلام لهج بالتسبيح، ولم ينطق لسانه بالقبيح ثم تراه يقوم كالمسيح[٢٧] ويدعو إلى الخير باللسان الفصيح[٢٨]، فمن أراد[٢٩] الاتّعاظ لقي[٣٠] قس إياد بعكاظ، أو مال إلى سماع البسيط والنشيد، وجد عنده نخب الموصلي للرشيد، فطوراً يُبكيك بأشجى من مراثي[٣١] أربد، وحينا يُسليك بأحلى من أغاني معبد، فسبحان من جعله هادياً خطيباً !، وشادياً مطرباً مصيباً[٣٢] ! لارب سواه[٣٣]. ولما طار في[٣٤] بلاد الغرب ووقع[٣٥] بأكنافها وسفع[٣٦]، وعاين ماااتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون، في تلك[٣٧] البطون والمتون، أزمع عنها فراراً، ولم يجد بها قراراً[٣٨]،

لأن هذا الثمر بهذا الأفق هو قوام معاشه وملاك انتعاشه إليه يقطع وعليه يقع[٣٩]. فاستخفّه هائج التذكار نحو تلك الأوكار حيث يكتسي ريشه حريراً، ويحتشي جوفه بريراً[٤٠]، ويحتسي فراخه نميراً، ويغتدى على رهطه أميراً، فخذه إليك نازلاً لديك، ماثلاً بين يديك يترنم بالثناء ترنم الذباب في الروضة الغناء، فقد[٤١] هزّ قوادم الجناح لعادة الاستمناح، وحبّر في[٤٢] لمع الأسجاع ما يصلح بالانتجاع[٤٣]، واثقاً بأنّ ذلك القطر الناضر ستنفحه حدائقه ولا تلحقه بوائقه[٤٤]، لاسيما وفضلك دليله إلى ترع رياضه، وفرض حياضه، مع أنّه لا يعدم في جنابك حَبّا نثيراً، وخصباً كثيراً، وعشباً وثيراً :

فإذا ما أراد كنت رشاءً[٤٥] وإذا ماأراد كنت قليبا[٤٦]

وبعد[٤٧] هذا الهزل العجاب جد كالليل[٤٨] المنجاب، وبروز صفحة الشمس من الحجاب، أخطب به[٤٩] من رسائلك بكرا وأجعل[٥٠] نقدها شكراً، وأبذل لها من ودّي مهراً، وأمتع بها لحظى دهراً، فإن فرجّت لخطبتي[٥١] باباً، ووصلت[٥٢] بي[٥٣] أسباباً، جددت للعهد شباباً، واستوجبت من الحمد محضاً لبابا، إن شاء الله تعالى[٥٤]، وأقرأ مني[٥٥] على سيدي سلاما أعطر[٥٦] من مسك دارين، وأكثر من رمل يبرين يحيّيه[٥٧] مع الشمس

شروقاً، ومع النجم طروقاً، والسلام المعاد الموصول ماعضّدت الفروع الأصول وألفت الجفون النصول(٥٨) ورحمة الله تعالى وبركاته(٥٩).



حواشي الرسالة الثانية

(١) (ذ)وانتهت هذه الرقعة إلى الوزير أبي القاسم بن الجد فعارضها برسالة قال فيها.
(٢) ذ: ضرائب.
(٣) انطاف: النطفة الماء الصافي قلّ أو كثر، والجمع نطاف، ونطفان الماء سيلانه.
ذ: ألطاف.
(٤) م: وجادت.
(٥) ذ: بفضلك ونبلك.
(٦) م: على أيكة لتوددنا.
(٧) د. علي .
(٨) ذ: نابتة.
(٩) ذ: ثابتة.
(١٠) ذ: لاسم التصغير.
(١١) باسمك.
(١٢) ذ: إليك.
(١٣) دَمِث، دَمْث، فهو دميث: لانَ، وسهل، ومكان دَمِث، لينّ الموطىء.
لسان العرب.
(١٤) ذ: وصف به نفسه: زيادة.
(١٥) زيادة في (م).
(١٦) ذ: شجوه.
(١٧) الزمع: الدهش.
م: السمع.
(١٨) البقل: من النبات ماليس بشجر، دقّ، ولا جلّ.
(١٩) العضاه: كل شجر يعظم، وله شوك.
(٢٠) ناقصة في «ذ».
(٢١) أعود إلى ذلك الحيوان: زيادة في «ذ».
(٢٣) سِقْط، وسُقْط: مايسقط من النار عند القدح، السقطة: العثرة والزلة.
(٢٤) الحرج: بكسر الراء وفتحها، هو المكان الضيق كثير الشجر، الحرج: الاثم.
(٢٥) تصغير داهية.
(٢٦) ذ: تلتهم.
(٢٧) ذ: كالنصبح.

(٢٨) ذ: بلسان فصيح.
(٢٩) ذ: أحب.
(٣٠) ذ: لغي منه.
(٣١) ذ: مر أى
(٣٢) مصيباً: ناقصة في «ذ».
(٣٣) لارب سواه: ناقصة في «ذ».
(٣٤) ذ: بيلاد.
(٣٥) ذ: ورقا في أكنافها.
(٣٦) ذ: صنع.
(٣٧) ناقصة في (م).
(٣٨) ذ: يجدها.
(٣٩) كما يقع على العسل الذباب وتقطع إلى العود الضباب: زيادة في
(٤٠) البرير أول مايظهر من ثمر الأراك وهو حلو.
(٤١) ذ: وفد.
(٤٢) ذ: من
(٤٣) ذ: للانتجاع.
(٤٤) ذ: ودائقة.
(٤٥) الرشاء: الحبل.
(٤٦) القليب: البئر.
(٤٧) «والله تعالى يكفيه فيما ينويه شر الجوارح ويقيه شؤم الجابه والبارح بمنه»: «زيادة في «ذ».
(٤٨) كالظلام.
(٤٩) ذ: بسه.
(٥٠) ذ: أجمل.
(٥١) ذ: لخطيئتي.
(٥٢) ذ: وصلت.
(٥٣) ذ: في مواصلتي.
(٥٤) الدعاء ناقص في «ذ».
(٥٥) مني: ناقصة في «ذ».
(٥٦) أعطر: ناقصة في «ذ».
(٥٧) ذ: يحسبه.
(٥٨) علي سيدي: زيادة في «ذ».
(٥٩) وبركاته: ناقصة في «ذ».



المصادر والمراجع

أولاً/ المخطوطات:

١) ابن بسام الشنتريني: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**. ج ٢/ مخطوط بغداد/ نسخة مصورة بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد.

٢) مجموعة رقم ٤٨٨/ مخطوط الاسكوريال ـ مدريد ـ أسبانيا.

ثانياً/ الكتب:

١) ابن بشكوال: **الصلة**، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٥٥.

٢) ابن سعيد المغربي: **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق شوقي ضيف الطبعة الثانية، مصر، دار المعارف ١٩٦٤م. مجلدات.

٣) ابن منظور: **لسان العرب**، ٢٠ جزءاً، المطبعة الأميرية القاهرة (١٣٠٠ ـ ١٣٠٧هـ).

٤) إحسان عباس: **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين** الطبعة الأولى، بيروت، دار الثقافة ١٩٦٢م.

٥) الحميدي أبو عبدالله محمد: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، الطبعة الأولى، مصر، مطبعة السعادة، ١٩٥٢م.

٦) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن: **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**.، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، القاهرة، عيسى البابي الحلبي ١٩٦٤م، مجلدات.

٧) الضبي، أحمد بن يحي بن أحمد: **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس** القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م.

٨) العماد الأصفهاني: **خريدة القصر وجريدة العصر**: ج ٢، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبدالعظيم، القاهرة، دار النهضة.

٩) غرسيه غومس: **الشعر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٢م.

١٠) الفتح بن خاقان: **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**، تقديم محمد العنابي، تونس، المكتبة العتيقة ١٩٦٦م.

١١) محمد غنيمي هلال: **النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة**، القاهرة، المطبعة العالمية ١٩٦٤م.

١٢) المراكشي، عبدالواحد: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، ط. مصر ١٩٤٩م.

١٣) المقري: **نفح الطيب**، تحقيق محمد محي الدين ط. مصر ـ دون تاريخ.

ثالثاً/ الدوريات:

1) journal of Arabia Literature (Brill) Vol VI, 1974.

